في انتظار ذلك اليوم ، ان نزيل بريق مقترحات بيرك مهما بدت مضحكة مثل هذه : « ما هو الشيء الموحد وما هو الشيء المتعدد في العالم العربي ؟ هذه مشكلة ينبغي ، مثلا ، ان تحظى بتوجيه « التربية والثقافة » وهو القسم الذي تكون اخيرا في كتابة الجامعة العربية » ص ٦٣ طابع اخر يطبع العرب في نظر بيرك ، وهو سيطرة المقدس ٠

على هذا الاعتبار ، سيكون المصير الراهن للعرب ، كما رأينا ، يقرره توتر بين المقدس والتاريخي ، توتر الانتقال من احدهما للاخر ٠ لا شك ان هذا مقترح مشترى وشائع في الايديولوجية الاستشراقية ، الا ان بيرك يدقق موقفه عندما يلح على ذلك الذي يظل منطويا في جوف الاسلام : اي الوثنية والطبيعية بالخصوص ٠ ومن ثم فانه يحتفل ايما احتفال بالشعر الجاهلي وبكثافته الغنائية الغريبة ٠ فهذا الشعر المنبعث من الصحراء، يظل تحديا للاسلام الاورثوذوكسي ، في نظره ٠ وسنعود الى هذا الاحتفال « البيركي » ٠ ماذا يقول بيرك عن المقدس ؟

بما انه لم يفكر فيه بما هو كذلك ، في تطابقه مع الالهة والناس والاشياء ، فان المقدس يؤول ، عنده ، الى « مستوى » الوجود ٠ انه يجعل من هذا المستوى تظاهرة تجريبية مبعثرة بين ثنايا اللغة ، والممارسة الطقوسية ، والسلوكات الجماعية ٠ نحن ، اذن ، امام اختزال لاهوتي للاسلام ٠ فاذا كانت هناك اقامة جوهرية للالهة في السماء وفي افئدة الناس ، فان المقدس لن يعطى بالضرورة لدين من الاديان ، ولن يكتب عن طريق الاعتقاد الصادق وحده ٠ ان انبثاق وتلاشي هذه الاقامة ، هما اختبار صوفي صوفية جذرية ٠ وهذا هو جوهر تجربة الشعراء الصوفيين المعلمين العجيبة ٠ لاجل ذلك تنتابنا الدهشة امام سكوت بيرك عن هذا الموضوع وهو الذي يتطوع بالحديث عن المقدس اللعبي ٠ الا يهتم بهذه الاغنية للوجود ، وبديونيسية النداء الابدي الذي عبر عنه الشعر الصوفي برقة لا تبارى ؟

ان ما يكتبه الاسلام الاورثوذكسي ، ليس هو فقط الطبيعة والوثنية ، بل كذلك الفكر الصوفي الذي اقلق اللاهوت وزحزحه عن مكانه ، ولو انه اعتمد على دراسة التقاليد ٠ وكما يقترح الشاعر جان جينه ، فانه يتحتم علينا ان ننصت الى معشوق المتصوفة في معناه المطلق ليكشف لنا الذي يحمله للشعر الاسلامي العظيم الذي لا يمكن اختزاله الى قراءة لاهوتية ٠ ان التصوف ليس مجرد « مستوى » يقع بين الادب وبين العلم والعلوم الدينية والفلسفة والميتافيزيقا ٠ انه السؤال الحاسم للمقدس وللاقامة الربانية في افئدة الناس ٠ انه تاكيد الوجود الديوناسي ، والظل التراجيدي للميتافيزيقا ٠

□

هل يضع الاستشراق ، موضع التساؤل ، المصير المشترك للعرب وللغرب ؟ هل جدد بيرك السؤال ؟

نلاحظ ، من الوهلة الاولى ، ان سؤالا بمثل هذه الاهمية ، سيكون مستعصيا على مستشرق يولي وجهه نحو اية واحدة من سفر الوجود ٠ ماذا سيصير مصير مثل هذا ؟

اما ان المستشرق سيجعل تعارضا بين الشرق والغرب طبقا لتقسيم ماهوي ؟ واما سيجعل من العرب نسخة مختلفة عن الغرب ٠ هذا ما يضطرنا الى ان نسأل بيرك : لماذا العرب وليس اللاشيء ؟